

نظرة في تاريخ يافا

بقلم حضرة الاب ا. س. مرمرجي الدومنيكي

استاذ المعهد الكتابي والاثري الفرنجي في القدس الشريف

٢

٤ العصر اليوناني البرهودي

في سنة ٣٣٢ ، احتل الاسكندر المقدوني فلسطين . فسقطت بذات العمل صور ، وغزة ، ويافا . على ان الاسكندر لم يكن على شاكلة الفاتحين القدماء . ؛ لكونه لم تكن مئنته الفتح وحسب ، بل كان يرمي في الوقت عينه ، بنشر الروح الاغريقي ، والحضارة اليونانية . وكانت يافا معدة لهذه الياسة ، لما كان بينها وبين جزائر ايجيه ، واليونان ، من سابق الصلاة . فترلها قوم الاسكندر ، وجعلوها يونانية ، حتى في اسمها ، فانهم ابدلوه باسم «جوربي» : Joppé ، وما يجدر بالذكر ان اول مضرب اقامه الاسكندر لضرب القود ، كان في يافا .

اما بعد موت الاسكندر ، وتخاصم قواده على الياسة ، واقتسامهم ملكه ، فقد وقعت يافا في حكم بطلميوس الاول ملك مصر . واستمرت تتقل من يد مالك ، الى يد مالك آخر ، من هولاء القواد وخلفائهم ، حسب احوال الحروب ، وتقلبات الياسة . فبعد البطالسة ، حكم على يافا السلوقيون ومنهم سلوقس الرابع ، وفيلوباتر ، وانطيوخس ايفانوس ، الذي كان قاسيا . وبلغضه لليهود ، واضطهاده لهم ، اثار ثائر المتعابين ، فنجح عنه استقلال الاسرائيليين حقبة . من الزمن لم تدم طويلا ، وهذه هي المرة الاولى التي طال بها ملك اليهود يافا ، فأضحت مرفأ لهم . ويخبرنا الكتاب انه في ذلك الزمان ، كانت طائفة من اليهود ساكنين في يافا . ففي بداية الحروب المقابية ، خانهم الوثنيون ، اذ تظاهروا لهم بالصدقة ، ودعواهم يوما الى التزعة في البحر .

ومن غريب الامور ، ان اليهود لم يشكروا في ما اضره لهم اعداؤهم . فصدروا السفن ، وبصحبتهم نساؤهم ، واولادهم . غير انهم ما بلغوا عرض البحر ، حتى قام عليهم الوثنيون ، فاغرقوهم . وكان عدد القرقي نحو المتين . فلتما بلغ الامر يهوذا المقلبي ، جمع جنده ، وزحف الى المدينة ، ودخل الميناء ليلاً ، فاضرم النار في السفن الراسية هناك ، وامر بقتل كل من حاول الفرار الى البر . ثم بعد ان نال المتساويون الاستقلال بانتصاراتهم المتواصلة ، احتل سمعان اخو يهوذا المقلبي يافا ، واقامها مرفأً لحكومته .

٥ العصر الروماني اليهودي

اول ما احتل الجنود الرومانيون من البلاد الشرقية ، كانت مصر وآسية الصغرى . ثم عقبتهما بلاد البنطس وارمينية . فان پبيس القائد الشهير ، بعد ان استولى على تلك البلاد ، وكرّ راجعاً ، فتح في عودته سورية ، ودخل دمشق منصوراً . وتبعت فلسطين سورية في امر الخضوع والتسليم لحكم الرومانيين . اما المدن الساحلية ، فانها كانت منفصلة عن بقية البلاد ، أعلنت مدناً حرة ، وفي جملتها يافا . واضطرت الاحوال يوليس قيصر الى محاربة پبيس فكسره . وقد ساعده في ذلك انتباز . فكافأته له على هذه الخدمة ، ملكه على اليهودية . وبما ان سكان يافا كانوا من انصار قيصر ، منح مدينتهم امتيازات شتى ، واعفاهم من تأدية الجزية سواء لرومة او القدس .

وفي زمن السيد المسيح ، كانت يافا في عداد المدن العشر المتأخرة ، في حكم الرومانيين . ولما اخذ الدين المسيحي بالانتشار ، كان سكان يافا من اول السدين دانوا به . وأنتاظر ان جماعتهم كانت وافرة من بادى الامر ، وقد زادهم عدداً ورسوخاً في الايمان ، بنهث الرسول بطرس لطيبته من الموت . وقد استمر بطرس زمناً طويلاً فيها ، ساكناً عند سمعان الدباغ ، الذي كان بيته قرب البحر . وفي هذا البيت عينه ، اذ كان بطرس يوماً على السطح يصلي ، رأى في الرؤيا وعاء نازلاً من السماء ، مملواً بحيوانات مختلفة الاجناس ، منها طاهرة ومنها نجسة . وعند ذلك سمع صوتاً يسمه على قبول الامر في الكنيسة . وبينما هو مفكر في امر الرؤيا ، اذا يرسل كرنيليس قائد المائة

قد اتوا اليه ، فطلبوا منه ان يذهب معهم الى قيصرية . وهناك قبل تنصر
كونيليس ، فكان اول متنصر من الاسم .

وبعد ذلك الزمان ، نجلد يافا عامرة ، والدين المسيحي زاهراً فيها ،
ازدهاراً جعلها ان يُقام فيها كرسي اسقفية . وقد زارها القديس هيرونغوس ،
في القرن الرابع ، تصحبه القديسة ياولا النيلة الرومانية وابنتها استوركيم .
وقد عجبوا من مرفئها الذي انهزم منه يونان النبي ؛ ورأوا الصخرة التي يذكر
في محيالات اليونان ان « ادروميديا » كانت موثوقة فيها بسلاسل . وفي اعمال
المجامع التي عقدت في القرنين السادس والسابع تتراً اسما . كثيرين من اساقفتها

٦ العصر العربي

كان دخول الجيوش العربية سورية وفلسطين ، ومن ثم بيت المقدس ،
سنة ٦٣٦ . وقد كان احتلالهم المدينة المقدسة بقيادة الخليفة عمر الفاروق ابن
الخطاب . وفي ذاك العام نفسه دخل يافا عمرو بن العاص فاتح مصر الشهيد ،
فبدل اسمها اليوناني ، باسم يافا . وبقيت المدينة في مقام المدن المهمة في فلسطين
واستمرت المرفأ الذي ينزل اليه اثوار القاصدون القدس . وهناك كانوا يتبركون
بزيارة بيت سمان الدباغ ، وقبر طيبته ، وكنيسة القديس بطرس الرسول .
وحسب رواية اليعقوبي الموزع العربي ، الذي عاش في القرن التاسع للميلاد ،
عادت يافا فاضحت مركز التجارة في فلسطين ، ودامت على هذه الحال الى
زمن الصليبيين .

٧ عصر الصليبيين

في سنة ١٠٩٩ ، لما اقبل الصليبيون الى هذه الديار ، كانت يافا في
مقدمة المدن التي استولى عليها غردفروا دي برون ، وهو زاحف الى القدس .
وكان سير الصليبيين في الطريق عينها التي طرقتها الفلسطينيين ، قبل ذلك
الزمان بؤها . ٢٣ قرناً . اي انهم توجهوا من انطاكية نحو القرب على طريق
الساحل ليتصاوا بجراكب الجوزيين عند يافا . وبعد ان فتح غردفروا القدس ،
عاد فشرع بيتا . ما هدم في يافا عند محاصرتها .

وفي عيد الميلاد من تلك السنة ، تأسست المملكة اللاتينية في اورشليم

على الطريقة الاقطاعية . فاقامت يافا ونواحيها كونتية . وبعد ان أخذت عقلا ن ألحقت بها ، فدُعيت كونتية يافا وعقلا ن ، واعد اليها كرسيا الاسقفي . وقد كان عصر الملكة اللاتينية ، كالعصر العربي ، عصر تجارة عظيمة ، وتقدم زراعي ، للمدن الساحلية ، ولاسيما يافا ، اذ انها كانت اهم مرفأ تجاري ، واقوى معقل حربي في هذه الربوع ، ما بقيت القدس بيد الصليبيين . اما بعد سقوطها ، فاضحت عكا المرفأ السكري ، وبقيت يافا في المقام الاول ، سواء من جهة التجارة ، او من جهة الزيارة للاراضي المقدسة . وكانت المينا . الاخير الذي ترسو فيه سفن الغرب الجائئة في سواحل البحر المتوسط . وكانت هذه السفن تأتيها فرادى او بعدد محصور ، وفي اي فصل من فصول السنة . الا ان العادة التجارية كانت تقدم اليها مرات معينة كل عام ، من السواحل الايطالية وكان يرفق العادة اسطول مسلح ، يقوده امير موفد من قبل حكومات تلك الديار .

ولم ترل يافا منذ ذلك الحين عرضة لتقلبات الاحوال . فكانت تارة بيد الفرنجة ، وتارة بيد المصريين . ومن المواقع الشهيرة التي جرت فيها بين الصليبيين والمصريين ، المعارك التي اشتبكت فيها جيوش صلاح الدين وملك الانكليز ريكاردس قلب الاسد ، وما اظهره هذان الملكان الكرمان ، والفرسان الصنديدان ، من الشهامة ، والبسالة ، والبطولة ، وقد خلد لها الذكر الطيب في التاريخ . فان صلاح الدين ، عند محاصرته هذه المدينة ، لم يجترئ بالقوا الاوامر على قواده وجنوده ، بل كان يرتقي هو ذاته الى الامام ، ويساعد عسكره على حفر الانفاق ، ونبال المحاصرين تنزل عليه كالطرر الوابل ، وهو في وسط الدخان ، وامام النيران المتأججة . وكذلك الملك ريكاردس ، فانه لما اقبل من عكا باسطوله الى مرفأ يافا ، وقد احتلها المصريون ، الا القلعة التي التجأ اليها الصليبيون ؛ ولما علم ان هذه القلعة لم ترل في حوزة عسكره ، لم تكن الا لحظة ، وقد القى بذاته الى البحر ، قبل الجميع فتبعه قواده . وصعد الى الساحل حيث كان قد احتشدت جنود المصريين ، جامير بمجهره . فما كان منه الا ان امتشق حسامه ، واقبل اليهم بقلب دونه قلب الاسد جراءة

وبالذات ؛ فشقَّ صفوفهم ، وشئتْ شملهم ، واسرع متقدماً عسكريه الى المدينة فرفع فيها رايته . فلنأ رآها المتأصرون في القلعة ، عادت اليهم شجاعتهم ، فقلوا اليه ، ودفنوا الاعداء الى الخارج ؛ مما مكَّنه ان يفاوض صلاح الدين ، في شأن الصلح ، على شروط شريفة .

ومأ يجمل بالذكر في هذا الصدد ، ان القديس لويس ملك فرنسا ، احتل هذه المدينة وعسكر جنده في ما حولها من البساتين . وقد سمى في بناء سورها وابراجها ، وكان هو عينه يشغل مع الصلة . وهو الذي أسَّ ديراً للفرنسيين وعتر لهم كنيسة .

٨ العصر المماليكي

في ايام بيبرس عادت يافا فخربت ، ألا ان اهاليها ، اصحاب الهمة ، لم يشموا ان عادوا اليها ، فانذوا بتعمير اسوارها وابراجها وقلعتها . كما ان سفن التجارة استأنفت المجيء اليها ، ولاسيا الايطالية منها . وقد زارها ابو الفداء فقال : انها مدينة صغيرة جميلة ، اراضيها مخصبة ، ويتردد الى اسواقها كثير من التجار ، ويرسو في مرفأها كل السفن القادمة الى فلسطين ، ومنها تغلغ الى غير بلاد . وقال عنها السائح اليهودي رابي اسحق شيلو : انها مجال البطار ، وعمل تجارة هبة ، وان اهاليها في غنى ورفاه . واهم ما يتجر به فيها الزيت ، والقطن ، والصابون ، والآنية الحرفية . وغير ذلك . وفي القرن الرابع عشر ، شيد الامير جمال الدين بن اسحق مقام الولي المدعو «قبة الشيخ مراد» ، الموجود اليوم شرقي ضواحيها ، المدعوة «بيكنة ابي كبير» .

٩ العصر التركي

ألا ان الدهر الخؤون عاد فقلب لها ظهر المجن ، فحالت الى الدمار . لكنها لم ترل مع ذلك محط رحال الزوار ، المقلين لزيارة القدس ، ولم يكونوا يجدون فيها عملاً يستظلون به من الشمس والمطر ، ألا مبعداً صغيراً كان من بقايا كنيسة القديس بطرس . واستمرت على هذه الحال ، حتى بعد ان كسر الترك المماليك ، واحتلوا مصر ، وفلسطين على عهد سلطانهم سليم الاول ، في القرن السادس عشر .

نحو منتصف القرن السابع عشر ، تزل بعض الرهبان الفرنسيين ، فسكنوا يافا ، بين تلك الحرائب ، ثم ابتنوا بعض الغرف ، لا يوا. الزوار ، فاتهمم الترك ببناء معاقل ، فأخروا ما عمروه . إلا ان هولاء الرهبان ، بعد سنين قلائل ، نالوا الاجازة بتعمير ما خرب . وعلى مثال الفرنسيين سار غيرهم من الطوائف المسيحية ، وكثير من الاهالي الساكنين الرملة ، وغيرها ، ممن مهتمهم مزاوله التجارة . فاخذوا يأتون رويداً رويداً فيسكنون يافا . عندئذ تحسنت احوالها ، وراجت اسواق تجارتها ، من منتصف القرن الثامن عشر الى ما بعده .
ومما يجدر بالذكر في تاريخ هذا العصر ، الحوادث التي جرت على يد الرجال الذين حكموها ، من مثل علي بك صاحب مصر ، وظاهر بن عمر ، حاكم عكا ، ومحمد ابي الذهب ، واحمد الجزائر ، وحمله نابوليون عليه ، وابي ثبوت ، ومحمد علي ، وابنه ابراهيم باشا .

فعلي بك الذي توصل فامتلك مصر ، في منتصف القرن الثامن عشر ، انتهز قرحة ارتباك الترك بحاربة الروس ، فزحف الى غزة ، والرملة ، واللد . واتفق مع ظاهر بن عمر الذي كان يقاتل عثمان باشا والي سورية .
واما يافا ، فلجل الانتقام الذي حصل بين اهلهما ، تمكن ظاهر بن عمر من دخولها واقامة الحامية فيها . امأ علي بك فارس ابنه محمد الملقب بابي الذهب - لما كان في خيسته من الرياش الشينة - على رأس ٤٠ الف مقاتل لمساعدة ظاهر . فتوجه كلاهما الى الشام ، وبعد ان استوليا على القلعة ، اذا بمحمد قد غادر المدينة فجأة ، فماد الى مصر حيث اعلن الحرب على علي بك . وبعد ان كسر جيشه ، قبض على زمام الحكم في القاهرة . وفر علي بك الى غزة ، ومنها الى عكا ، حيث التجأ الى حليفه ظاهر العمر ، ثم تمكن بعد ذلك من العودة الى يافا ، للاقتصاص من اهلهما . فحاصرها ثمانية اشهر ، وفي آخرها سلمت . إلا ان علي بك جرح وأسر في معركة بينه وبين ابي الذهب .
ثم عاد ابو الذهب باسر من الباب العالي ، فزحف الى فلسطين ، وجاء فحاصر يافا . واشتد الامر عليه ، لان السكان قاوموه من داخل . وفي اثناء المفاوضات في شأن الصلح ، دخل بعض المماليك المدينة ، وحاولوا السلب ،

فانهم الاهلون . حينئذ انتفعت الصاكر كلها عليهم ، واعملوا فيهم السيف بطريقة تشهير لها الابدان . واما ابو الذهب ، فهو عينه امر بان تجمع روزوس القتلى ، فصار منها هرم ، اقامه على التل الذي عليه نصب مدافع المصريين . فدعي منذ ذلك اليوم « تل الرووس » وبعد اخذ عكاً بايام ، مات فجأة . فاسرع جيشه بالعودة الى مصر .

وقام بعد ذلك على عكاً خلفاً لظاهر العمر ، احمد الجزائر المشهور . وهو الذي طرد منها الفرنج الذين كانوا ساكنين فيها منذ قرون للتجار ، فاعتصب املاكهم واموالهم . وعليه ، فلما حمل بونابرت حملته من مصر الى فلسطين ، لكسر شوكة الجيش التركي ، كان من مقاصده اخذ عكاً ، وازال القصاص بالجزائر ، فبعد ان استولى نابوليون على غزة والزملة ، انسحب العسكر التركي الى يافا ، وهناك في داخل المدينة ، جرت معركة اسفرت عن اشد احوال الحرب . وفي يافا ايضاً فشا الطاعون بين عسكر الامبراطور ، فاضطر هو عينه الى الذهاب لاقتقاد المضروبين . وكان يجس قروحهم بيده ، تشجيعاً لهم ، وتغير المصايين .

اماً الستون التي عقت ذلك فقد كانت حقة تقدم وفلاح للمدينة . اذ تولأها رجل يلقب « بابي نبوت » وهو الذي شيد الجامع الكبير ، والسوق ، والمين ، وكل هذا من ابداع ما يكون من البناء ، والاتقان ، والزخرف . واقام سيلاً يدعى سيل « ابي نبوت » وهو واقع على طريق القدس .

وفي اواسط القرن التاسع عشر استقل محمد علي حاكم مصر ، وارسل الجيوش لفتح فلسطين بامرة ابنه ابراهيم باشا . فجاء الجيش وعسكر بين يافا والولي ابراهيم المجي . اما السكان ، فبعد المفاوضة والتدبير ، اجمع رأيهم على التسليم ، دون مقاومة ، حقناً للدماء . فاحتل ابراهيم المدينة . وفي اثناء هذا الحكم ، لم ينل يافا ادنى ضرر ، بل انها سارت متقدمة ، وزهت . وقد كان من نية ابراهيم باشا ان يجيل « بصة يافا » الى سرفاً داخلي ، تصله ترعة بالبحر . الا ان هذا الفكر لم يجز بالعلل ، اذ توصلت تركية ، بجلاونة

بعض كبار الدول الأوروبية ، الى ان تستعيد فلسطين . فكان ذلك آخر العهد بحكم المصريين .

على ان بعض مئات من العائلات المصرية ، من الذين هاجروا من مصر الى فلسطين ، في غضون احتلال ابراهيم باشا ، استقرت في ضواحي المدينة ، فانشأت قرى صغيرة ، احتاطت بها البساتين . ومن هذه القرى ، سكنة الي كبير ، وسكنة حماد ، وسكنة الدرويش .

وأما الحالة من ذلك الحين الى هذه الايام فهي معروفة من الجميع ، فلا حاجة الى الاستفاضة بها .

بعد هذا الطيران ، بطيافة الفكر ، على تاريخ يافا وحياتها الطويلة ، طولاً يربو على الخمسين قرناً ، الا يجدر بنا ان نستج ان ليافا الحق بان تفتخر وتفاخر غيرها من المدن . اجل لها الحق ان تفتخر ، لان اسمها الجميلة ، وهو اسم وافق المسمى ؛ لانها جميلة بوقعا ، جميلة بمرافقها ، جميلة بمبانياتها ، جميلة ببحرها . وهي بنت البحار ، ومقصد التجار . يحق لها ان تفتخر بقدمها ، لان مدناً قليلة قد وجدت منذ وجودها . يحق لها ان تفتخر لما لموقعها من المناعة والخطورة ، ولاراضيها من الحصب ، ولتجارتها من الاهمية . فانها في كل زمان قد كانت سوقاً رائجة ، يقصدها المتاجرون برأً ومجرماً ؛ يحق لها ان تفتخر لكثرة الدول التي طمحت اليها بابصارها ، ولحلول اعظم الرجال ، والملوك والقواد فيها . يحق لها ان تفتخر لما فيها من الذكريات الدينية ولكونها مدخل اشهر مدينة في العالم ، وهي المدينة المقدسة . يحق لها ان تفتخر حتى بمصائبها ونكباتها ، لانها لم تكن تدمر فتخرب ، الا وبعد قليل تنبت من رميها . فهي حرة بان تلقب بالمدينة « الميتة الحية » . يحق لها ان تفتخر بثبات وصلابة اهاليها وتعلقهم بها ، ان كانوا من القدماء او من الحاليين . لان يافا قد زادت ، وتقدمت في هذه الآونة ، اكثر من كل زمان ، وحال من الاحوال . ففي راقية من الوجبة التجارية ، والاقتصادية ، والزراعية ، والادبية ، والعلمية ، والدينية ، والاعمال الخيرية ، زادها الله تقدماً ونجاحاً ، وصانها من آفات العصر الوحشية .